طب نفسى

عرض لكتاب

حيث تزمجر الجبال

من تأليف

ليزلى هيزقشن

د. محمد شعلان

المؤلفة أخصائية نفسية تحولت إلى الصحافة والتأليف . . وهى يهودية بريطانية تحولت إلى إسرائيلية ثم إلى مواطنة أمريكية . . قضت عاما فى الصحراء بين النقب وسيناء (قبل عودتها إلى السيادة المصرية) .

لقد كانت تهدف إلى وصف الصحراء ولكن اقتناعها بها جعلها تتحدث باسم الصحراء : للصحراء لاعنها . إذ بعد أن كانت بداية رحلتها سلسلة من المحاضرات فى علم النفس تلقيها فى الجامعة بالنقب ، أى رحلة بدأتها كمهنية متخصصة ، وجدت تأثير الصحراء قد أحدث فيها تحولا وجدانيا.

الحقيبة المهنية المتخصصة تنظر إلى الأشياء من منظور محدد ولا تراها شاملة . فعالم الجيولوجيا يرى الصحراء مجموعة من التكوينات الطبيعية من رمال وصخور . وعالم البيولوجيا يرى فيها نباتات وحيوانات . أما عالم النفس فانه يرى فيها سلوك وعى سكانها القليلين من بدو رحالة أو تجمعات سكانية فى القرى المتناثرة .

إلا أن عالم النفس أكثر من غيره يأخذ موضوع علمه حيثما ذهب . وهو نفسه . بل إنه لا يستطيع أن يفصل بين أداة العلم . أى نفسه . وبين موضوع علمه وهذا هو من أهم آثار الوجودية فى علم النفس . فالنفس هى الأخرى لا يمكن أن تنفصل عن موضوعها . فهى « نفس - فى - العالم » أو بالتعبير الألمانى « دازاين » Dasein .

ولعل هذا التأثير الفلسفى فى علم النفس يعكس بدوره الثقة التى عاشتها المؤلفة من الموقف التخصصى الذى ينظر إلى المواضيع الخارجية كأنها مواضيع . هناك . لا علاقة لها بالمشاهد ويمكن وصفها بدقتها إلى الموقف الشمولى الذى يرى المواضيع الخارجية مرتبطة فى طبيعتها بما يضفيه عليها المشاهد من صفات . وهى صفات ترتبط بدورها بعضها ببعض .

فالصحراء ليست مجرد رمال وصخور . ولا مجرد نباتات وحيوانات . ولا مجرد موضوع خارجى هناك . بل هى كل هذا فى صورة واحدة متكاملة وهى فوق كل هذا حالة وجدانية داخلية . لعلها مواجهة الإنسان لوحدته وعزلته فى حلقة من اللامحدود والأبدى . إنها مواجهة بين الحياة فى بحثها عن الاستمرار والأبدية وقسوة الموت .

ولعلها لم تكن صدفة أن الأديان السماوية الوحدانية الثلاثة نبعت من الصحراء . صحراء هذه المنطقة بالذات . بل إنها نبعت بعد أن اعتزل كل من أنبيائها – موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام) – لمدة أربعين يوما فى أحضانها بعيدا عن ضجيج البشر . الصحراء تذكر الإنسان بمحدوديته فى الزمان والمكان . وتجعله يرى بالمقارنة ما هو لا محدود ولا نهائى فى الزمان والمكان . وهو الإله الواحد .

لقد بدأت المؤلفة رحلتها وهى تعبد وثنا من ضمن الأوثان . أو ترى الأشياء من منظور دون غيره . وهو منظور تخصص علم النفس . ثم أفاقتها صدمة الصحراء لتكتشف أنه إذا كان وثنا إلها كما كانت تعتقد . فكل عابد لكل وثن آخر يعتقد بدوره أنه إله .

وإذا كانت كل هذه القلوب المؤمنة بألوهية أربابها موجودة . وآلهتها بالتالى موجودة . وكل إله بالضرورة نفى لأى إله آخر . فهناك نقطة يتبين فيها المؤمن أنه لا توجد آلهة البتة فيفقد إيمانه فيواجه وحدته بكل قسوتها وبرودتها .

ولكن مواجهته لهذه الوحدة هى شكل يتطلب أرضية تبرزه والأرضية هى تلك الخبرة المناقضة للوحدة والعزلة . وهى أنه جزء من وجود أكبر لا حدود له ولا نهاية . وذلك الوجود هو الإله الواحد الأحد !

المؤلفة لا تعلن هذا التحول صراحة ولكنها تعيشه وتعبر عنه من خلال كتابها . فقد وصفت الصحراء . أو على حد تعبيرها . تركت الصحراء تعبر عن نفسها من خلال قلبها الذى عبر بدوره عن وجدانها .

وقامت بهذا الوصف وهى مسلحة بخلفية مهنية

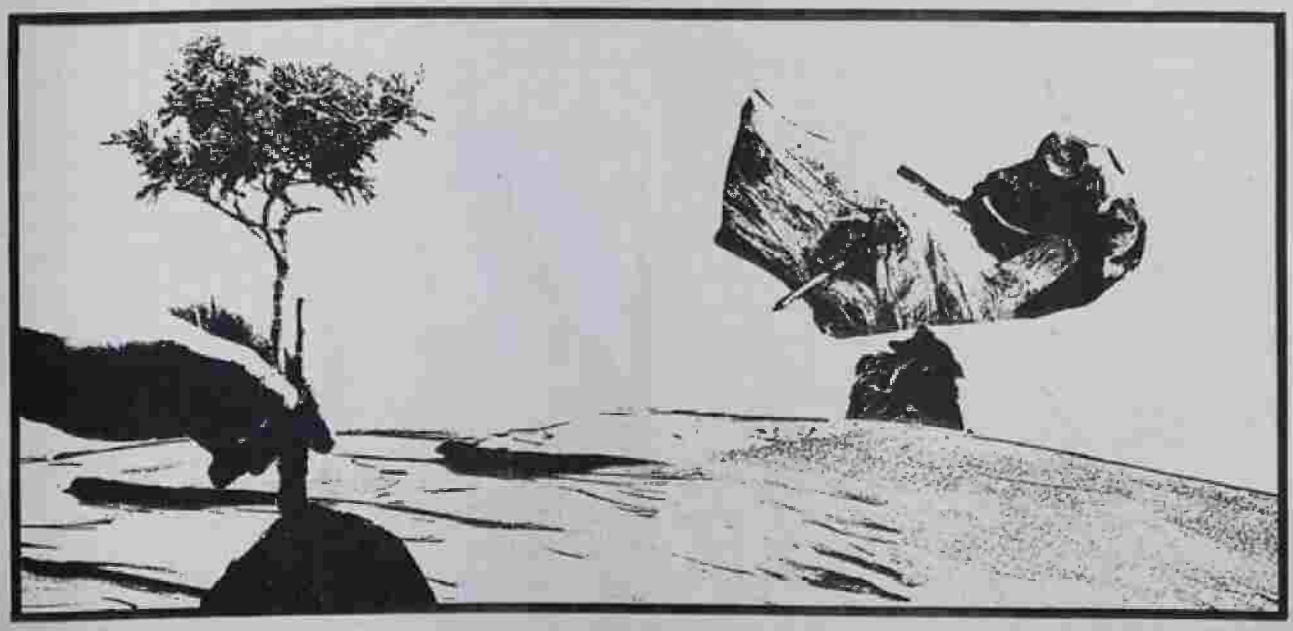

علمية دربت فكرها على الوضوح والتسلسل المنطقي والتحليل والتصنيف . ولذلك فهي تصف كل ظاهرة على حدة : الرمال والصخور والمياه في السماء وتحت الأرض ورحلتها بينها . والكائنات الحية من قوافع وقشريات وحيوانات ونباتات . ثم البشر من عرب بدو كانوا يتعايشون مع بيئتهم عبر آلاف السنين في توازن . إلى أبناء المدينة من الإسرائيليين الذين جاءوها مختلين عشاريهم التصديرية أو الاستعمارية المختلة يتعذر أن « تجعل الصحراء تزهر » .

إنها ترفض أن تكون الحياة مجرد استمرار للوجود الحي بلا معنى آخر . فالقوافع والقشريات والنباتات والجبال التي عمرت الصحاري منذ ملايين السنين قد أثبتت قدرتها على ذلك رغم كل الصعوبات والقسوة التي تواجهها في الصحاري . القوقع يتحرك ربما بمعدل عشرين يوما في السنة الواحدة . فهو يحمي داخل قشرته ويغلف مدخلها بغشاء يحميه من الجفاف . بل إنه يحمي تماما باستثناء خلاياه الجنسية .

فإذا أمطرت استطاع أن يمتص كميات وفيرة من المياه تكفي حاجته لمدة طويلة ويعود إلى الحركة التي تبدأ أولا ما تبدأ بالتناسل والتناكح من أجل التكاثر . ثم تستمر الحركة بعد ذلك للبحث عن الطعام من أجل الوجود الذاتي ومن أجل النسل الذي ينتج بكثرة تعوضي عن فقدان غالبيته بالموت من فعل قرى الطبيعة أو التهام الطيور أو غيرها من الكائنات الحية .

الإنسان يحول وجوده إلى مجرد تناكح وتناسل بغية التكاثر الذي يلهيه حتى يزور القابر . وهو إذا اقتصر على ذلك المستوى من الوجود يتحول إلى مجرد كائن حي آخر مثله مثل القوافع أو النباتات أو الجبال . لعله في بادىء الأمر يرى أن الوجود هو تأكيد لوجوده على حساب وجود غيره .

فالكائنات الحية تأكل بعضها البعض إلا أن نجاح الإنسان بفضل قدرته على التواجد الجماعي والاستمرار الحضاري والذي عوضه عن افتقاره إلى الوسائل الطبيعية التي تؤكد وجوده في مقابل البيئة القاسية . ذلك النجاح جعله يؤكد وجوده فعلا على حساب وجود غيره . فهو يأكل النباتات والحيوانات أو يسخرها لخدمته . بل إنه بعد ذلك يسعى إلى تحديد هويات مصطنعة داخل هويته الإنسانية فعلها تأكيد ذاتها في مواجهة غيرها : فالرجل الأبيض ينفي وجود الرجل الأسود أو الأحمر أو الأصفر ويسعى إلى السيطرة عليه وتسخيره . وكذلك الأوروبي في مواجهة الأفروآسيوي أو الغربي في مواجهة الشرق : أو المسلم والمسيحي واليهودي . كل يسعى إلى نفي الآخر أو تسخيره أو إخضاعه .

ونجاح الإنسان في هذا التأكيد لذاته يجعله يواجه وحدته . فاللحظة التي يتأكد فيها أنه موجود دون غيره هي اللحظة التي يعي فيها وحدته وعزلته . هي لحظة المواجهة مع الصحراء وهي لحظة المواجهة مع الفناء . وعندها يكتشف اللانهاية أو يكتشف الله ويبدأ في البحث عن القيم والمعاني والأهداف التي تتجاوز مجرد التأكيد للذات . وتأخذ في الاعتبار تأكيد وجود الغير وقبول الآخر .

ويعني ذلك التعايش مع ما هو دونه من موجودات حية وغير حية . في هذه اللحظة يتقبل اليهودي المسلم ويتقبل المسلم اليهودي ويتقبل الرجل الأبيض الأسود والأصفر والعكس . ويتقبل الجميع القوافع والقشريات والنباتات والحيوانات .

والتقبل أو التعايش لا يعني إفناء الذات من أجل الغير مثلما هو نفي لتأكيد الذات على حساب الغير . بل هو تأكيد للذات والغير على السواء . إنها نقطة من تصارع ينفي فيه كل موجود ما عداه من موجودات إلى تعاون يؤكد فيه كل موجود غيره . أو تصارع يفسر فيه الطرفان إلى تعاون يكسب فيه الطرفان .

الصحراء في حديثها عن نفسها من خلال هذا الكتاب هي صرخة الصحراء . بكل ما يوجد فيها ومن يوجد فيها من أجل البقاء في مواجهة ما تراه اقتحاما من قبل الإنسان لها . الإنسان يكاد يفقد الهدف في سعيه الأعمى للوجود البحت الذي لا يأكد إلا نفي غيره .

إنه بتكاثر ينتشر ويقتحم ويتقدم ولكنه في عنفوان ونشوة نصره يغتال غيره الذي هو في النهاية مصدر غذائه وبالتالي وجوده . وهو باغتياله له إنما يضع أول مسمار في نعشه . فالإنسان الذي يبتلع بيئته ويعتدي عليها كهالة ينتهي بأن يجد نفسه وحيدا بلا بيئة تغذيه وتحميه وترعاه .

والصحراء ليست مجرد تلك الأرض برمالها وصخورها ونباتاتها وحيواناتها . ولكنها أيضا تراث حضاري إنساني . بل هي أصل التراث الحضاري الإنساني لكونها منبع الأديان السماوية الثلاثة والتي انتشرت لتسيطر على العالم ، أو تكاد ، اليوم . فسكان الصحراء ليسوا مجرد بدو أو حتى عرب بل هم العرب – المنبع والأصل – وإذا كانت لفكرة محو وجودهم اثم اليوم على أبدي الإسرائيليين . فإن ذلك منبعه ليس من مجرد كونهم اسرائيليين أو يهودا . ولكن لكونهم ممثل حضارة غربية وغربية على هذه المنطقة – منطقة صحراء .

إنها حضارة المدينة . والمدينة بشكل عام نهاية البداوة . وهي سابقة لها منيلادها في انتحام الإنسان الغربي لأمريكا على حساب سكانها الأصليين . وفرض حضارة مصطنعة تخل بتوازن الطبيعة . فالخطر على عرب الصحراء هو خطر إسرائيل حاليا ولكنه في جوهره خطر المدينة والمدنية بصفة عامة . وإذا كانت إسرائيل هي التي تحمل ذلك الذئب اليوم وتقوم بعملية « الصلب الجديد » هذه للعرب في البادية . فإن الذئب ليس ذنبها وحدها بل هو ذئب العالم الغربي كله .

بل إنه ذئب تزكيه بضاعة مبالغ فيها بكاريكاتورية وتشويه . الصفوة الكاذبة المصطنعة التي تروج على قيم الخدمات الغربية الحديثة – الصفوة الحديثة الثراء التي فشلت في صنع حضارة نابعة من جذورها فاستعاضت عن ذلك باستيراد الحضارة الغربية جاهزة بأجهزتها . بل بجوها المكيف وزوجها بلا تذوق وسط صحرائها العريقة .

ويختم الكتاب بمناشدة الرئيس السادات ألا يحول منطقة سانت كاترين – كما فعل الإسرائيليون – إلى منطقة سياحية تتوافد عليها الأفواج بصوصاتها وسطحيتها فتفقدها ميزتها الروحية التي حافظت عليها عبر القرون . وهي تناشده ألا يبني ذلك الصرح السياحي على هيئة تجمع لأماكن عبادة للأديان الثلاثة .

ولكنها مع ذلك قد أجابت على هذا النداء من حيث لا تدري على لسان عالم المياه إيفينري أن رى الصحراء بالنسبة له هواية وتعبير عن فضول علمي . بل يرى أن ذلك موقف إسرائيل كمجتمع . وهو باعترافه يختلف فيما يتعلق بالعالم الثالث حيث رى الصحراء ضرورة .

وبالمثل فإن الرحلة الروحية التي قامت بها المؤلفة لمدة عام في الصحراء هي تعبير عن بحث فرد عن ذاته . وهي حالة تتكرر بين حين وآخر من قبل المثقفين والمفكرين بل المغامرين من الغرب . برز منهم دوافي Dawin الإنجليزي الذي عايش العرب في الخمرة وكتب مذكراته عنهم . ثم لورانس العرب الذي زاوج بين بحثه عن ذاته وخدمته للأهداف القومية لانجلترا .

وها هي ذي مؤلفتنا أيضا تبحث عن ذاتها وهي تسعى لتحقيق ذلك التعايش بين المتناقضات التي عاشتها بداخلها : الانجليز واليهود وهو التناقض الذي نشأت عنه الحاجة إلى إنشاء دولة يهودية في هذه المنطقة تمنع وحدتها الجغرافية وتستلب طاقتها القتالية .

ثم التناقض بين إسرائيل والعرب والذي نشأ عنه ذلك التفاعل المرير الدامي ثم التصالح والتعايش الذي نحن بصدده اليوم . والتناقض بين المدنية والبادية حيث اعتداء المدنية على البادية بحرمها من أحد عناصر التوازن الطبيعي الذي سبق أن احتل في المدينة .

والتناقض بين الرجل والمرأة حيث الرجل الذي طالما ادعى صنع الحضارة تاركا صناعة الأطفال للمرأة . يفعل الآن على المستوى الجماعي ما تفعله المرأة . فهو يتكاثر وينتشر جسمانيا بلا هدف حضاري باق . ومجرد التكاثر والانتشار .

والمؤلفة إنجليزية يهودية اسرائيلية أمريكية وامرأة تسعى لصنع حضارة تقوم على تآلف بين كل هذه التناقضات . الرحلة الروحية بواسطة ضياع الصحراء قامت بها . بعد وقاحية . القديسة كاترين . مثلها مثل بحث أفينيري عن الحضرة في الصحراء . هي وقاحية بالنسبة لهذه القلة من الناس التي تملك الرغبة والقدرة على البحث . ولكنها بالنسبة للعالم الثالث ضرورة .

والرئيس السادات حينما يزمع إنشاء ذلك المجمع الديني في ذلك المكان إنما يعبر عن تلك الضرورة . فالعالم الثالث يتيقن بالطريق الصعب أن سيرته في طريق القوة بدل الحكمة . إنما جعله الطرف الأضعف في المعادلة .

فشراء السلاح مربح للعالم الغربي . واستخدامه يجسر العالم الثالث فوق المادة أرواحا شابة وغالية تاركة النساء بأطفالهن العديدين بلا رعاية . والبحث عن القيم المستلهمة من الأديان الثلاثة معا ضرورة وليست وقاحية . والقيم المطلوبة هي ما تسمح بالتعايش بين الأضداد وقبول الآخر واحترامه فالصراع الدامي لا يخدم حتى حامل السلاح . إذ أنه يزداد تشبثا بسلاحه خوفا من انتظام غريمه منه . فهو يهلك نفسه خوفا وكرها إن لم يمت بفعل الانتظام .

بل لعل أخيف للكآبة أن هناك مشروعا موازيا قد لا يرضيها لأول وهلة . ولكنه بالمثل يعتبر ضرورة موضوعية للعالم الثالث . وذلك المشروع هو إقامة مركز للتنمية الذاتية هناك لاستخدام تكنولوجيا علم النفس والعلاج النفسي من أجل تدريب الراغبين على القيام بمثل هذه الرحلات على مدى فترة قصيرة نسبيا لهم . ليست عاما كاملا وليست رحلة سياحية سطحية تستغرق ساعات أو أياما . إنها رحلة الروح في العصر الحديث بمعاونة التكنولوجيا النفسية .